# النص المتخصص :
# مدخل إلى تحسين تعلم العربية

أ. مي حبيقة الحداد – أ. رنا الحكيم بكداش(*)

تسود بعض المعاهد والجامعات العالمية، منذ سنوات، موجة في تدريس اللغات تفرّق بين اللغة المتخصصة واللغة العامة. فتعرض على أهل الاختصاص دروساً في اللغة المتخصصة مفصولة تماماً عن دروس اللغة العامة. يكفي البحث على شبكة الإنترنت عن " Langue de spécialité". أو " English for specific purpose" للحصول على مئات، بل آلاف المواقع والعناوين لهذا النوع من الدروس. والهدف منها تأهيل المتعلمين لغوياً وتدريبهم، في الوقت عينه، على التواصل في ما بينهم كمتخصصين في ميدان معين.

ولكن قد يطرح السؤال التالي: " إلى أيّ حد يمكن اعتبار اللغة متخصصة وكأنها منفصلة عن اللغة العامة. وهل اللغة متخصصة أم النص هو المتخصص لأنه يحتوي على مصطلحات خاصة بميدان معين؟

سنحاول في ما يلي التفكير في هذا الموضوع على مستويين : فنعرض أولاً لبعض الأفكار التي تنقد هذا الفصل بين اللغتين، ثم نذكر مقترحات وأفكاراً عملية على المستوى الجامعيّ مستمدة من تجربتنا في تدريس اللغة العربية المتخصصة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة القديس يوسف – بيروت.

إن الفصل بين اللغة العامة واللغة المتخصصة قد يؤدي ضمناً إلى إهمال الغاية الأساسية من التواصل اللغويّ، وهي البيان والبلاغة (بالمعنى الذي سنشرحه). فهذا التفريق يفضي تلقائياً إلى إعطاء المصطلح الحيز الأكبر من الأهمية باعتباره عامل الفصل الرئيس بين المستويين. فيتركز البحث عليه من غير النظر إلى اللغة، إلى بيانها كما يحدده الجاحظ: " البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى" ويضيف :" إن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذاك هو البيان في ذلك الموضع"[1].

فالجاحظ يولي أهمية كبيرة لكشف المعنى وللعلاقة بين القائل والسامع القائمة على الفهم والإفهام.

أما ابن خلدون فيتكلم عن اللغة – الملكة فيقول:" إعلم أنّ اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على

(*) مدرسة الترجمة – بيروت – جامعة القديس يوسف.

مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة".[2]

يستدل من هذا القول على أهمية التركيز على التراكيب قبل المفردات، والتشديد على المعنى المقصود وكيفية التعبير عنه لأنه الغاية الأساسية.

ولئن كان الجاحظ يطرح مسألة الفهم والإفهام وابن خلدون أهمية التراكيب والمعاني المقصودة، فلا يسع الباحث اليوم أن ينظر إلى اللغة، حتى ولو كانت موجهة إلى أهل الاختصاص، من غير النظر إلى بنائها، أيْ إلى قدرتها على إفهام المعاني التي تتضمنها. وإلا غاب عامل ضمنيّ، نستشفه من كلام الجاحظ وابن خلدون وهو قدرة اللغة التواصلية، تلك العلاقة بين " القائل والسامع" (بتعبير الجاحظ) أو بين " المتكلم والسامع" (بتعبير ابن خلدون). لذا، فالتركيز على المصطلح يحجب هذا المفهوم ويحصر اللغة بين دفتي المعجم. وبالتالي لا يمكن تعليم اللغة لأهل الاختصاص من غير تعليمهم القدرة على الفهم والإفهام. فيتعلم الطالب فهم المسموع والمقروء ويتدرب على التعبير في ميدان اختصاصه بما تقتضيه أصول اللغة حتى يتمكن من الإفهام.

والكلام عن لغة متخصصة يعني التوجه إلى الخاصة وليس إلى العامة. فالسامع أو الجمهور المستهدف مختلف، وبالتالي على المتكلم أن يراعي حال السامع لأن غايته التواصل معه. وفكرة المراعاة هذه، والتفريق بين مستويات الجمهور نجدها عند القدماء بتعابير متعددة من مثل، مراعاة مقتضى الحال (كما وردت في النص السابق لابن خلدون)، أو لكل مقام مقال (كما ورد عند الجاحظ :" مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال")[3]، كما ينقل الجاحظ على لسان بشر بن المعتمر قوله :

" ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت".[4]

إلا أن هذا التفريق والفصل لا يعني أن اللغة تتغير مع تغير السامع. " فتطبيق الكلام على مقتضى الحال" إنما هي عملية اختيار يقوم بها المتكلم ضمن اللغة نفسها فيؤثر تركيباً على تركيب أو خياراً معجمياً على آخر، هي مسألة أسلوب وطريقة تعبير. أما اللغة بمواردها وأصولها فتبقى هي هي في جميع الأحوال. حتى الجاحظ في معرض تفسيره كلام العتابي حول البلاغة، يشترط أن يكون الإفهام " على مجرى كلام الفصحاء" [5] حتى يمكن الكلام على البلاغة، فيستبعد اللكنة والخطأ واللحن.

لذا لا يمكن اعتماد تركيب غير سليم أو غير مفهوم بحجة أن هذه لغة متخصصة لا يفهمها إلا أهل الاختصاص".

ثم إن الفصل بين التوجه إلى العامة والتوجه إلى الخاصة قد يحمل في طياته موقفاً اجتماعياً يعترف بالفروقات الاجتماعية والعقلية بين الناس. يقول الجاحظ:" كلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات"[6]، وينقل عن بشر بن المعتمر قوله:" ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات"[7].

إلا أن هذا التفريق الطبقيّ (إذا جاز التعبير) لا يضع حدوداً بين العام والخاص على مستوى الفهم لأن المعنى يبقى هو الأهم. والمعنى كما يذكر الجاحظ على لسان بشر بن المعتمر إياه :" ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة،

وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة... وكذلك اللفظ العاميّ والخاصيّ"[8]، حتى إن بشراً بن المعتمر يذهب إلى حد اعتبار تمام البلاغة في ما قد نسميه اليوم تعميم المعرفة، فيقول:" فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك...، على أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفوعن الأكفاء، فأنت البليغ التام".

وبذلك يتساوى الكلام العام والكلام الخاص، وتغيب الحدود القاطعة بينهما، ليلتقيا في هدف مشترك هو الكشف عن معنى معين أو "إحراز المنفعة"، ومتى انتفى هذا الهدف فشل المتكلم في عملية تواصله سواء مع العامة أو الخاصة. وفي ما يلي مثل عن كلام لم يصل إلى مبتغاه مع أنه يحتوي مصطلحات علمية وهدفه التوجه إلى الخاصة.

النص مقتطف من مقالة في مجلة علمية عربية:

وأوضحت العوضي أن الهدف الأساسيّ للمشروع يتمثل في تقديم مدى ملاءمة المياه المحلاة الخالصة، وتلك التي يتم خلطها بنسبة 10 من المياه قليلة الملوحة، ومياه الصرف الصحيّ بواسطة تقنية التناضح العكسيّ، مع مياه مكمن مجموعة الكويت، تمهيداً لاستخدامها في حقن هذا المكمن اصطناعياً في المستقبل، بالإضافة إلى دراسة التغيرات المحتملة في الخصائص الهيدروليكية للمكمن والآثار التي يمكن أن تنجم عن حقن المياه في مكونات المكمن وسبل تلافيها أو الحد منها.

والفصل بين اللغة العامة واللغة المتخصصة ينم كذلك عن نظرة مجتزأة إلى اللغة باعتبارها وعاء يحتوي المفردات. في حين أن اللغة كل متكامل لا يتجزأ، فهي تحمل المصطلحات على قاعدة التراكيب والصيغ والأصول النحوية والصرفية، وهي أساس يستعمل المصطلح للتعبير. فالمصطلح بحد ذاته لا يكفي للتعبير عن المعنى، ولوائح المصطلحات على أهميتها، لا تنفصل عن اللغة، لذا حفظها غيباً مثلاً لا يمكن أن يصل بالطالب (أو بأيّ قارئ) إلى القدرة على الفهم والتعبير في ميدان معين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى المصطلح أيضاً يستعمل اللغة عند نشأته. فالمصطلح؛ أيّ المتخصص في علم المصطلحات أو المصطلحية، يلجأ إلى قواعد هي في الأساس قواعد لغوية تم اعتمادها قياساً على ما قام به الأقدمون من تعريب ونحت وتركيب مزجيّ وغيرها... هذه التبعية المتبادلة أو التفاعل الدائم بين المصطلح واللغة، تحتم الكلام عن **خطاب** متخصص أو نص **متخصص** عوض الكلام على **لغة** متخصصة. ومشكلة النص المتخصص في العربية لا تكمن في المصطلحات، بقدر ما تكمن في قدرة هذه النصوص على إحداث التواصل المطلوب بين أهل الاختصاص أنفسهم، وبينهم وبين العامة.

بدل أن تكون الصورة على الشكل التالي :

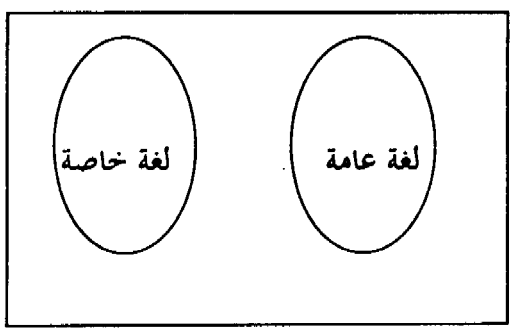


يصبح النظر إلى اللغة كما يلي: اللغة واحدة، النص المتخصص داخل اللغة وفيه المصطلح. أما التفاعل فمتبادل

ودائم بين العناصر الثلاثة.

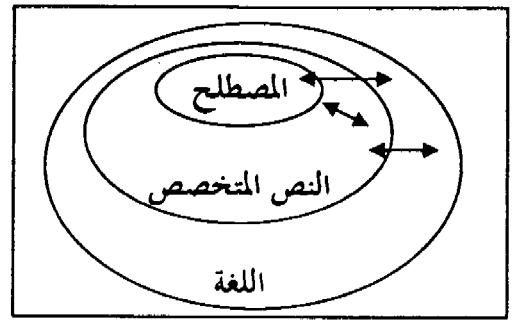


وتتفاوت ردود فعل القارئ عادة أمام بعض النصوص المسماة " متخصصة"، فأياً كان مستوى القارئ اللغويّ، لا بد له من أن يواجه أحياناً صعوبة في فهم النص "المتخصص" الذي بين يديه، وتتراوح عملية الفهم بين الفهم الجزئيّ وعدم الفهم تماماً. في الحالة الأولى، يحاول القارئ أن يرصد في النص بعض الجمل التي تسمح له فهم المرسلة بشكل عام ؛ أما في الحالة الثانية، فيقع القارئ على نص صيغ بكلمات غريبة ولكن بتراكيب غريبة. و لا بّد لنا من أن نتساءل عن مرد هذا الخلل في عملية الفهم: هل يعود إلى المجال المتخصص أم إلى ضعف التأليف أم إلى ركاكة التركيب؟ ويبرز السؤال هل ابتعد العصر الحالي عن مفهوم الأديب بمعناه الشامل الذي كان سائداً في القرن الماضي؟

مفهوم الأديب العام الذي يسمح للطبيب أن يكون أديباً وللعالم أن يكون أديباً من غير أن يعني هذا الكلام حكما انتماء أيّ من الطرفين إلى مجال الشعر أو مجال الكتابة.

حيال هذا الواقع كيف تبدو حال المرسل إليه أو المتعلم من الخطاب المتخصص؟

لا بد لنا من أن نوضح أن المتعلم يتمرس في العلم كعلم ولكن هذه العملية تبقى مجتزأة، فالمتعلم يتوصل إلى فهم الخطاب المتخصص بشكل عام، ولكنه يبقى غير قادر على التأليف في المجال عينه وإذا كان غير قادر على التأليف، فهل سيتمكن لاحقاً من الترجمة في حال قدر له أن يترجم ؟ والحل الجزئيّ يؤمنه المصطلح ولكن قدراته تبقى محدودة، فالمصطلح وحده لا يكفي في عملية الفهم، لأنه لا يؤدي المطلوب وهو بحاجة إلى وسيط أو ركيزة يسمح للمرسل إليه فهم المرسلة **فهماً تاماً** في مرحلة أولى ليتمكن من **التعبير السليم** في مرحلة لاحقة.

أما الركيزة في هذه العملية فتبقى اللغة السليمة التي تحمل في طياتها إمكانيتي الفهم والإفهام.

ومن المفترض أن يسعى التعليم العالي إلى تأمين هذا الهدف المزدوج في مجال النص المتخصص كأن يتم نقل المصطلح والتمكن من الخطاب المتخصص في الوقت عينه، كما أشارت زميلتي آنفاً في رسمها البيانيّ، يبقى أن القاسم المشترك للميادين كافة هو **اللغة السليمة** وقد تلجأ بعض الميادين المتخصصة إلى ما يعرف بالقوالب (مثلاً المجال القانونيّ الذي يبدأ بالتركيب حيث إن) – ولكن هل يحدد هذا القالب بلغة متخصصة؟

ولتوضيح الفكرة السابقة ننقل، على سبيل المثال، في مسار درس علم النفس، الفصل المتعلق بالذاكرة[9]. يشكل النص المتخصص باللغة العربية نقطة الانطلاق لأنه الأساس ويتم التعامل معه انطلاقاً من مستوى المرسل إليه أو المتعلم. ونشير هنا إلى تفاوت مستويات المتعلمين التي تتراوح بين العاميّ والعارف والمتخصص، وتختلف المقاربة باختلاف المرسل إليه.

نذكرعلى سبيل المثال، التحديد: "الخطور التلقائيّ

أو الذكر" لن يغيب التحديد في أيّ مستوى من المستويات الثلاثة، إلا أن المتلقي أوالمرسل إليه يحدد مستوى الصياغة. **فبالنسبة إلى العاميّ** : يصبح التحديد" تفسيرياً" إلى حد بعيد فيتوقف عند كل مفردة ويحاول أن يقربها من المعنى في الشائع ويذوب المصطلح بمجموعة مفردات. كأن يقال مثلاً: الخطور: من فعل خَطَر، أيْ ورد على البال...

التلقائيّ : أيْ عكس المفروض أو الإجباريّ...

الذّكر: كلمة تعني أن يذكر الإنسان حوادث دون أن يقوم بمجهود محدد، وهي المفردة التي تفسر الخطور التلقائيّ الآنفة...

**وبالنسبة إلى العارف** : تخف نسبة التذويب فيقتصر التحديد مثلا على إيراد المصطلح والمرادف، دون التوقف عند جذور المفردات والتفاصيل.

**أما بالنسبة إلى المتخصص:** فهو على بينة من هذه المصطلحات ولا حاجة بالتالي إلى تفسيرها أو تذويبها، بل يمكن الانتقال إلى النقطة الثانية من الخطاب المتخصص.

ولكن أياً كان مستوى المتعلم، عامياً أو عارفاً أو متخصصاً، يبقى الهدف تأمين سلامة النص. وسلامة النص تعني سلامة التراكيب وحسن بيانها، فيتحول العمل عند ذلك إلى عمل لغويّ، وتكون اللغة العامة هي المرجع وهي القادرة على تأمين تأدية المعارف باستخدام وضوح الفكرة والاستناد إلى المصطلح؛ فلا يمكن تركيب النص المتخصص على حساب اللغة. والمتخصص لا يقرأ طلاسم ولا يفك رموزاً ولكنه يقرأ لغة عادية سليمة وعليه أن يخاطب الناس وزملاءه بهذه اللغة السليمة.

وبعد،

لعل تعامل البعض والعربية يذكر بتصرف محدثي النعمة أو أثرياء الحرب: يدهشهم الحاسوب أو تشدهم التسميات، ولعل البعض الآخر يبالغ في إنشائية جوفاء، وبين هذا وذاك تقف العربية بوقارها وإمكاناتها اللامتناهية، ولعلها تقول اهتموا بطريقة تعليمي فهنا بيت القصيد.

## الهوامش :

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول، دار صعب- بيروت،لات. ص54 .

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 1071 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ص 86.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، ص 86.

(5) الجاحظ، البيان والتبيين، ص 99.

(6) الجاحظ، البيان والتبيين، ص 90 .

(7) الجاحظ، البيان والتبيين، ص87.

(8) الجاحظ البيان والتبيين، ص 86 .

(9) جميل صليبا، ميدان علم النفس – الذاكرة، ص 407.